الفصل الرابع

من ثمرات السريرة الصالحة

للسريرة الصالحة ثمرات طيبة وعواقب حميدة، يغتبط ويسر بها صاحبها في الدنيا والآخرة ومن أهمها ما يلي:

الثمرة الأولى:

محبة الله عز وجل ومعيته لصاحب السريرة الصالحة، وولايته له.

مر بنا قوله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**» وأشار بأصابعه إلى صدره[1]، وكذلك قوله ﷺ: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...**»[2] الحديث.

---

(١) مسلم: (٢٥٦٤).

(٢) البخاري: (٦٥٠٢).

obeikandl.com

ومعلوم أن أول ما يدخل في الفرائض والنوافل فرائض القلب ونوافله. وجاء عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أحب العباد إلى الله تعالى الاتقياء الأصفياء، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا، وإذا شهدوا لم يعرفوا، أولئك هم أئمة الهدى ومصابيح العلم**»(١).

وإذا أحب الله عَزَّوَجَلَّ عبداً تواردت عليه أسباب التوفيق والتيسير والهناء في الدنيا والآخرة، وأثمرت له هذه المحبة ثمرات يانعة في دينه ودنياه وهي ما سيرد ذكره في الثمرات الآتية.

الثمرة الثانية:

مضاعفة الحسنات وقبولها عند الله عَزَّوَجَلَّ، وغفران الذنوب، ومحو السيئات:

فالله عَزَّوَجَلَّ لا يتقبل إلا من المتقين، والمتقون هم الذين أصلحوا ظواهرهم وبواطنهم، فجاءت على ما يحبه الله ويرضاه. والعمل الصالح يكون له من الفضل والقبول عند الله عَزَّوَجَلَّ بقدر ما يقوم بقلب صاحبه من اليقين والمحبة

(١) مستدرك الحاكم، وقال صحيح الإسناد: (٥١٨٠).

والإخلاص والخوف والرجاء، وغيرها من أعمال القلوب والسرائر. قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾[الحج: ٣٧]، وترى الرجلين يدخلان في عبادة من العبادات: كالصلاة والصيام والصدقة والحج والدعوة والجهاد، ويكون بينهما في الثواب والأجر كما بين السماء والأرض، وذلك حسب ما قام في قلبيهما من العبادات الباطنة.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (فالمحو والتكفير يقع بما يُتقبل من الأعمال. وأكثر الناس يقصِّرون في الحسنات، حتى في نفس صلاتهم. فالسعيد منهم من يُكتب له نصفها، وهم يفعلون السيئات كثيراً. فلهذا يُكفَّر بما يُقبل من الصلوات الخمس شيء،وبما يُقبل من الجمعة شيء، وبما يُقبل من صيام رمضان شيء آخر. وكذلك سائر الأعمال، وليس كل حسنة تمحو كل سيئة، بل المحو يكون للصغائر تارة، ويكون للكبائر تارة، باعتبار الموازنة.

والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر. كما في

الترمذي وابن ماجة وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيُنشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجلٍّ منها مدّ البصر. فيقال: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: لا ظلم عليك. فتخرج له بطاقة قدر الكف، فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع هذه البطاقة في كفة، والسجلات في كفة، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات**»[1].

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق، كما قالها هذا الشخص. وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم، كما ترجّح قول صاحب البطاقة.

وفي لفظ في الصحيحين: «**أن امرأة بغيًا رأت كلبًا في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها**

(١) الحديث مع اختلاف في الألفاظ عن عبدالله بن عمرو بن العاص في سنن الترمذي: (٤/ ١٢٣، ١٢٤)، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٨٠٩٥).

فسقته به فغفر لها»[1] وفي لفظ في الصحيحين أنها كانت بغيًا من بغايا بني إسرائيل، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوكٍ على الطريق فأخَّره، فشكر الله له، فغفر له**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**دخلت امرأة النار في هرّة، ربطتها: لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت**»[3].

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كلّ بغيٍّ سقت كلباً يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، فغُفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وليس كل من نحَّى غصن شوكٍ عن الطريق يغفر له.

---

(١) البخاري (٣٢٨٠). واللفظ لمسلم (٢٢٤٥). والموق: هو الخف فارسي معرب.

(٢) البخاري (٦٥٢)، ومسلم: (١٩١٤).

(٣) البخاري: (٣٣١٨)، ومسلم: (٢٢٤٢).

قال الله تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ ﴾ [الحج: ٣٧]. فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول، والتصدُّق به، لكن يناله تقوى القلوب.

وفي الأثر: إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب.

فإذا عُرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل، لا يَعْرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله. عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق، ولم يضرب بعضه ببعض.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وفي الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله: أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف أن يعاقب؟ قال: **«لا يا ابنة الصدِّيق، بل هو الرجل يصوم ويصلّي ويتصدّق، ويخاف أن لا يقبل منه»**[1].

(١) روي هذا الحديث بألفاظ متقاربة في سنن ابن ماجة: (٢/ ١٤٠٤)، وفي سنن الترمذي: (٢٤ باب ومن سورة المؤمنون).

obeikandl.com

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه**»(١).

وذلك أن الإيمان الذي كان في قلوبهم حين الإنفاق في أول الإسلام وقلة أهله، وكثرة الصوارف عنه، وضعف الدواعي إليه لا يمكن أحداً أن يحصل له مثله ممن بعدهم. وهذا يعرف بعضه من ذاق الأمور، وعرف المحن والابتلاء الذي يحصل للناس، وما يحصل للقلوب من الأحوال المختلفة.

وهذا مما يُعرف به أن أبا بكر رضي الله عنه لن يكون أحد مثله، فإن اليقين والإيمان الذي كان في قلبه لا يساويه فيه أحد. قال أبو بكر بن عيَّاش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه.

وهكذا سائر الصحابة حصل لهم بصحبتهم للرسول، مؤمنين به مجاهدين معه، إيمان ويقين لم يشركهم فيه من بعدهم.

والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب. والناس يتفاضلون في

(١) البخاري: (٣٦٧٣)، ومسلم: (٢٥٤١).

ذلك تفاضلاً عظيماً، وهذا مما يحتج به من رجّح كل واحد من الصحابة على كل واحد ممن بعدهم، فإن العلماء متفقون على أن جملة الصحابة أفضل من جملة التابعين، لكن هل يفضّل كل واحد من الصحابة على كل واحد ممن بعدهم، ويفضل معاوية على عمر بن العزيز؟

ذكر القاضي عياض وغيره في ذلك قولين، وأن الأكثرين يفضِّلون كل واحد من الصحابة، وهذا مأثور عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما)[1]. أ.هـ.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب التقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين. وهذا من جواهر الكلام، وأدلة على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير ﷺ، فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال ﷻ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن

(١) منهاج السنة: (٦/ ٢١٨)، وما بعده باختصار.

﴿يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «**التقوى هاهنا**»[١]، وأشار إلى صدره.

فالكيس يقطع المسافة بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق)[٢].

وقال في موطن آخر، وهو يعدد فضائل العلم والعلماء: (الوجه الثاني والسبعون: أن صاحب العلم أقل تعباً وعملاً وأكثر أجراً، واعتبر هذا بالشاهد، فإن الصُّنَّاع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم، ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى، حيث قال: «**أفضل الأعمال الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد**»[٣]، فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله

(١) مسلم: (٢٥٦٤).

(٢) الفوائد: (ص ١٤١).

(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع: (١٠٩١)، وأصله عند البخاري: (٢٦)، ومسلم: (٨٣).

obeikandl.com

وتصديقه وهو أفضل الأعمال، مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال.

والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولاً، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة. ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملاً وحجًّا وصوماً وصلاة وقراءة منه. قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهذا موضوع المثل المشهور.

من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول)[1]

وروى صاحب الحلية الحافظ أبو نعيم بسنده قال: (حدثنا سليمان بن أحمد ثنا عبيد بن محمد الكشوري ثنا همام بن سلمة ابن عقبة قال ثنا غوث بن جابر قال ثنا عقيل بن معقل بن منبه. قال سمعت عمي وهب بن منبه يقول: يا بني أخلص

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٣٣، ١٣٤).

طاعة الله بسريـرة ناصحة يصدق الله فيها فعلك في العلانية، فإن من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب موضعه وأبلغه قـراره، وإن مـن أسر عمـلاً صالحاً لم يطلع عليـه أحد إلا الله فقـد اطلع عليه من هو حسـبه، واسـتودعه حفيظـاً لا يضيع أجره، فلا تخافن على عمل صالح أسررته إلى الله ﷻ ضياعاً، ولا تخافـن من ظلمه ولا هضمه، ولا تظنـن أن العلانية هي أنجح من السريرة، فإن مثل العلانية مع السريرة، كمثل ورق الشجر مع عرقها، العلانية ورقها، والسريرة عرقها، إن نخر العرق هلكت الشـجرة كلها ورقهـا وعودها، وإن صلحت صلحت الشـجرة كلها ثمرها وورقهـا، فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عرقها مستخفياً لا يُرى منه شيء. كذلك الدين لا يزال صالحاً ما كان له سريرة صالحة، يصدق الله بها علانيته، فإن العلانية تنفع مع السريرة الصالحة كما ينفع عرق الشـجرة صلاح فرعها، وإن كان حياتها من قبل عرقها، فإن فرعهـا زينتها وجمالها، وإن كانت السريـرة هي ملاك الدين، فـإن العلانية معهـا تزين الدين وتجملـه، إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلا رضاء ربه ﷻ)[1].

(١) حلية الأولياء: (٤/ ٧٠).

الثمرة الثالثة:

إلقاء الله ﷻ المحبة لصالح السريرة بين الناس، ووضع القبول له عندهم:

فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحببه. فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض**»[1]، وهذه المحبة إنما نشأت من علم الله ﷻ بصلاح سريرة العبد وسلامة قلبه ومحبة الله ﷻ له.

يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (إن للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة، كم من مؤمن بالله ﷻ يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهي حذراً من عقابه، أو رجاء لثوابه، أو إجلالا له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هنديًّا على مجمر، فيفوح طيبه، فيستنشقه الخلائق، ولا يدرون: أين هو.

وعلى قدر المجاهدة في ترك ما يهوى تقوى محبته، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب،

(١) البخاري: (٣٢٠٩)، ومسلم: (٢٦٣٧).

ويتفاوت تفاوت العود. فترى عيون الخلق تعظم هذا الشخص، وألسنتهم تمدحه، ولا يعرفون لم. ولا يقدرون على وصفه لبعدهم عن حقيقة معرفته.

وقد تمتد هذه الأرابيح بعد الموت على قدرها، فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة، ثم ينسى. ومنهم من يُذكر مئة سنة، ثم يخفى ذكره وقبره. ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبداً. وعلى عكس هذا من هاب الخلق، ولم يحترم خلوته بالحق. فإنه على قدر مبارزته بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب، يفوح منه ريح الكراهة، فتمقته القلوب. فإن قلَّ مقدار ما جنى قلَّ ذكر الألسن له بالخير، وبقي مجرد تعظيمه.

وإن كثر كان قصارى الأمر سكوت الناس عنه، لا يمدحونه ولا يذمونه.

ورب خال بذنب كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا والآخرة، وكأنه قيل له: إبق بما آثرت. فيبقى أبدا في التخبيط.

فانظروا إخواني إلى المعاصي، أثرت وعثرت. قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى، فيُلقي الله

بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر. فتلمحوا ما سطرته، واعرفوا ما ذكرته. ولا تهملوا خلواتكم ولا سرائركم، فإن الأعمال بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص)[1].

ويقول في موطن آخر: (والله لقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدرُه في النفوس ليس بذاك.

ورأيت من يلبس فاخر الثياب، وليس له كبير نفل ولا تخشع، والقلوب تتهافت على محبته، فتدبرت السبب فوجدته السريرة، كما روي عن مالك: أنه لم يكن له كبير عمل من صلاة وصوم، وإنما كانت له سريرة.

فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه.

فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر)[2].

ويقول في موطن ثالث: (نظرت في الأدلة على الحق ﷻ فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيت من أعجبها أن الإنسان

(١) صيد الخاطر: (١٧٠، ١٧١).

(٢) صيد الخاطر: (ص ٢٠٧).

قد يُخْفِي ما لا يرضاه الله ﷻ، فيُظهره الله ﷻ عليه ولو بعد حين، ويُنْطِق الألسنة به، وإن لم يشاهده الناس.

وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق، فيكون جواباً لكل ما أخفى من الذنوب، وذلك ليعلم الناس أن هنالك من يجازي على الزَّلَل، ولا ينفع من قدره وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يضاع لديه عمل.

وكذلك يُخْفي الإنسان الطاعة فتظهر عليه، ويتحدث الناس بها وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنباً، ولا يذكرونه إلاَّ بالمحاسن، ليعلم أن هنالك ربًّا لاَ يُضيعُ عَمَلَ عَامِل.

وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه، أو تأباه وتذمه، أو تمدحه وفق ما يتحقق بينه وبين الله تعالى، فإنه يكفيه كل هم، ويدفع عنه كل شر.

وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر الحق، إلاَّ انْعَكَسَ مَقصُودُهُ، وعاد حامُده ذامًّا)[1].أ.هـ

فهذا من أعظم ثمرات صلاح السريرة، لأن الكلمة الصادقة عندما تنبع من قلب صالح طيب تفعل فعلها في

(١) صيد الخاطر: (ص٩٨).

القلـوب، ويكتب الله ﷻ لهـا القبول عند النـاس، وهذا أمر مشاهد.

وفي ذلك يقول سـيد قطب رحمـه الله تعالى: (إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقًّا إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعاً لما ينطق.. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة واحدة، لأنها منبثقة من حياة)[1].

وذكر صاحب الحلية عن مالك بن دينار قوله: (الصدق والكذب يعتركان، حتى يخرج أحدهما صاحبه، وإن الصدق يبـدو في القلـب ضعيفـاً كما يبدو نبـات النخلة، يبـدو غصناً واحـداً، فإذا شـقها الصبـي ذهـب أصلهـا، وإن أكلتها عنز ذهـب أصلها. فتسـقى فتنتشر، وتسـقى فتنتـشر حتى يكون لهـا أصل أصيل يُوطأ، وظل يُسـتظل به، وثمـرة يؤكل منها. كذلـك الصّـدق يبـدو في القلـب ضعيفـاً، فيتفقـده صاحبه

(١) في ظلال القرآن، الآية (٤٤) سورة البقرة.

ويزيده الله تعالى، ويتفقده صاحبه، فيزيده الله، حتى يجعله الله بركة على نفسه، ويكون كلامه دواءً للخاطئين.

ثم قال مالك: أما رأيتموهم؟ ثم يرجع إلى نفسه، فيقول: بلى، والله لقد رأيناهم: الحسن البصري، وسعيد ابن جبير وأشباههم، الرجل منهم يحيي الله بكلامه الفئام - الجماعات- من الناس)[1].

وذكر الذهبي في ترجمته لمحمد بن واسع رحمه الله تعالى، فقال: (روي أن قاصًّا كان بقرب محمد بن واسع، فقال: ما لي أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والجلود لا تقشعر؟ فقال محمد: يا فلان ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب)[2].

الثمرة الرابعة:

حسن الخاتمة نسأل الله ﷻ حسنها:

وهذا من أعظم ثمار السريرة الصالحة، وما أقض مضاجع السلف، وأزعج قلوبهم مثل الخاتمة، والخوف من

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٣٥٩).

(٢) السير للذهبي: (٦/ ١٢٢).

سوئها. ولكن الله ﷻ برحمته ولطفه وعدله وحمده لا يختم لصاحب السريرة الصالحة بسوء أبدا، وإنما يكون ذلك لمن فسدت سريرته، وباغته الموت قبل إصلاح الطوية، التي لا يعلمها إلا الله ﷻ، وفي ذلك يقول الإمام عبدالحق الإشبيلي رحمه الله تعالى: (واعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سُمِعَ بهذا قط، ولا عُلِمَ به والحمد لله، وإنما يكون ذلك لمن كان له فساد في العقد، وإصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، وربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، ويثب عليه قبل الإنابة، ويأخذه قبل إصلاح الطوية فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله ثم العياذ بالله)[1].

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: (إن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد، لا يطلع عليها الناس: إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك، فتلك الخصلة توجب له سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار، وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة)[2].

(١) العاقبة في ذكر الموت: (١/ ١٣٣).
(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٥٧).

وعلق الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى على ما ترجم له البخاري بقوله (باب الأعمال بالخواتيم) فقال: (ذكر فيه حديث سهل بن سعد في قصة الذي قتل نفسه، وفي آخره: وإنما الأعمال بالخواتيم....

وقال ابن بطال: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أُعجب وكسل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً، فحجب ذلك ليكون بين الخوف والرجاء، وقد روى الطبري عن حفص بن حميد قال: قلت لابن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً، فقلت في نفسي أنا أفضل من هذا. فقال: أَمْنك على نفسك أشد من ذنبه. قال الطبري: لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر، لعل القاتل أن يتوب، فيقبل الله توبته، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء)[1].

الثمرة الخامسة:

تفريج الكروب وتنفيس الشدائد

قال الله ﷻ بعد أن ذكر استجابته ﷻ لأنبيائه ودعواتهم في تفريج الكروب: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى

(١) فتح الباري: (١١/ ٤٠١) حديث: (٦٤٩٣).

﴿ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فمن كانت له سريرة صالحة في السراء والضراء نفَّس الله كربه، وفرَّج الله همَّه، ورزقه من حيث لا يحتسب، قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، ولقد نجَّى الله ﷻ أنبياءه من الكروب، التي نزلت بهم بصلاح سرائرهم وسلامة قلوبهم من الشرك والمعارضات، وامتلائها بالتوحيد والتقوى والصبر واليقين، كما حصل لنوح عليه السلام وقومه الموحدين بنجاتهم من الطوفان، ونجاة إبراهيم عليه السلام من النار، وفلق البحر لموسى عليه السلام وقومه، ونجاتهم من فرعون وقومه، ونجاة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من مشركي قريش، ومن كثير من الكروب والشدائد التي مرت به عليه الصلاة والسلام، ونجاة يوسف عليه السلام من ضيق الجب والسجن بصبره وتقواه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، ونجاة أصحاب الغار الثلاثة وانفراج الصخرة عنهم، بفضل إخلاصهم وصلاح سرائرهم والأخبار في ذلك كثيرة.

الثمرة السادسة:

الراحة ونزول الطمأنينة والسكينة في قلب من صلحت سريرته، وثباته أمام فتن الشبهات والشهوات وابتلاءات الخير والشر، وهداية الله ﷻ له إلى الحق والتوفيق إلى الصواب عندما تحتار العقول والأفهام. قال الله ﷻ عن نبيه محمد ﷺ وهو في الغار: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩].

وقال عن نبيه ﷺ وأصحابه الكرام: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال عنهم أيضاً: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وكلما اتقى العبد ربه وصلحت سريرته كان أقرب للحق وأسعد الناس باتباعه، قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (صاحب الرضى في راحة ولذة وسرور، كما في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»[1])[2].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (فالسكينة فعيلة من السكون، وهي طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل وقد ألقي في المنجنيق مسافراً إلى ما أضرَم له أعداء الله من النار، فلله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك

(١) رواه الطبراني بسند ضعيف: (١٠/ ٢١٥)، والصحيح وقفه على ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) مدارج السالكين: (٢/ ١٤٥).

السفر! وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غَشِيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا! وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداء ونجاء كلاماً حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعباناً مبيناً، وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعِصيَّهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حُنَيْن ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذَّاب - ولا سيما على الله - أقلق ما يكون، وأخوف ما يكون وأشده اضطراباً في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان. وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك... والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان، ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان، لئلا تقوى وتصير هموماً وغموماً وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها، ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح، لئلا يطمح به مركبه، فيجاوز الحد الذي يعبر فينقلب ترحاً وحزناً، وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحد فانقلب ترحاً عاجلاً)[1].

الثمرة السابعة:

الهداية للحق والسداد في المواقف:

صاحب السريرة الصالحة من أولياء الله ﷻ وأحبائه. ومن كان كذلك فالله ﷻ معه يسدده ويوفقه ويهديه للحق عند اختلاف الناس فيه، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(١) أعلام الموقعين: (٢/ ٢٠٢) باختصار.

ويقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩].

يقول السعدي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: (أي جمعوا بين الإيمان والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة، **(يهديهم ربهم بإيمانهم)** أي بسبب ما معهم من الإيمان يثيبهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم)[1].

ولا تظهر الحاجة إلى هذه الثمرة من ثمار السريرة الصالحة كما تظهر أيام النوازل والفتن، وذلك حينما تختلف الآراء والمواقف، ويلتبس الحق بالباطل، وتتعارض المصالح والمفاسد فيما بينها. فيوفق الله ﷻ صالحي السريرة من عباده لما اختلف فيه من الحق بإذنه ﷻ.

(١) تفسير السعدي عند الآية (٩) من سورة يونس.